﴿* وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣﴾ [الفرقان: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العَوْدُ إلى الاستدلالِ على تفرُّدِهِ تعالى بالخَلْقِ

مناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها: أنَّها عَوْدٌ إلى ذكرِ النِّعَمِ[1]، والاستدلالِ على تفرُّدِهِ تعالى بالخَلْقِ[2]، والمذكورُ فيها هو النَّوعُ الرّابعُ مِنْ دلائلِ التَّوحيدِ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَجَ﴾: (مرج) مجيءٌ وذهابٌ واضطرابٌ[4] واختلاطٌ[5]، وقولُهُ تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ معناهُ: أنَّهُ تعالى أجرَى البحرين، وأرسلَهما مُختلطًا أحدُهما بالآخرِ، وجعلَ بينَهما حاجزًا، وقولُهُ: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٖ ٥﴾ [ق: 5]، أي: مُختلِطٍ، مرَّةً يقولونَ: هو شاعرٌ، ومرَّةً: كاهنٌ، ومرَّةً: ساحرٌ، ومرَّةً: مجنونٌ، ويقالُ: مَرَجَ الشَّيءُ؛ إذا قَلِقَ، فلم يَثْبُتْ، ومنهُ: مَرَجَ الخاتمُ، أي: خرجَ، ولم يستقرَّ[6].

2) ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: (بحر) أصلُ البحرِ: كلُّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماءِ الكثيرِ، ثمَّ اعتُبِرَ تارةً سَعَتُهُ المُعايَنَةُ، فقيلَ: بَحَرْتُ كذا: أوسعتُهُ سَعَةَ البحرِ؛ تشبيهًا بهِ، ومنهُ: بَحَرْتُ البعيرَ: شَقَقْتُ أُذُنَهُ شقًّا واسعًا، وسمَّوا كلَّ مُتوسِّعٍ في شيءٍ بحرًا، فقالوا: فرسٌ بحرٌ، باعتبارِ سَعَةِ جَرْيِهِ، وللمُتوسِّعِ في علمِهِ: بحرٌ، وقد تبحَّرَ في كذا، أي: توسَّعَ فيهِ[7].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 58.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 474.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرج).
(5) الراغب، المفردات: (مرج).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (مرج).
(7) الراغب، المفردات: (بحر)، والزبيدي، تاج العروس: (بحر).

3) ﴿عَذۡبٞ﴾: (عذب) يقالُ: عَذُبَ الماءُ يَعْذُبُ عُذوبةً، فهو عَذْبٌ، أي: طيِّبٌ[1]، وأعذبَ القومُ؛ إذا عَذُبَ ماؤُهم، واستعذَبوا؛ إذا استَقَوا، وشَرِبوا عَذْبًا[2]، والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديدُ، واختُلِفَ في سببِ تسميةِ العذابِ بذلكَ، فقيلَ: هو مِنْ قولِهم: عذبَ الرَّجلُ؛ إذا تركَ المَأْكَلَ والنَّوْمَ، فهو عاذبٌ وعَذوبٌ، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَملُ الإنسانِ على أنْ يعذِبَ، أي: يَجوعَ، ويَسْهَرَ، وقيلَ: أصلُهُ مِنَ العَذْبِ، فعذَّبتُهُ: أَزَلت عَذْبَ حياتِهِ، وقيلَ: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضَّربِ بعَذَبةِ السَّوْطِ، أي: طَرَفِها، وقيلَ: التَّعذيبُ هو الضَّربُ، وقيلَ: هو مِنْ قولِهم: ماءٌ عَذْبٌ؛ إذا كانَ فيهِ قَذًى وكَدَرٌ، فيكونُ عذَّبتُهُ، كقولِكَ: كدَّرتُ عَيْشَهُ[3].

والأصل في المادة يرجع إلى كلِّ طيِّب يسوغ للإنسان، والتفعيل منها (التعذيب) إزالةُ ذلك الطيب والحرمان منه، ومثلُها في الصيغة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ [سبأ: 23]، أي: أُزيل الفزع عنها.

4) ﴿فُرَاتٞ﴾: (فرت) الماء الفرات: هو الخالص من الملح الصافي من الكدورةِ، ولهذا عَبَّرَ عنه البعضُ بأنَّه أشدُّ الماءِ عذوبةً[4]، لجمعه بين جمال الطَّعم والمنظر، ومن قال: إنَّ الماءَ الفُراتَ: هو العَذْبُ[5]؛ نظر إلى صفةٍ واحدةٍ من صفتيه وهي خلوُّه من الملوحة، وهو مأخوذ مِنْ فرَتَ الشَّيءَ، أي: شقَّهُ، فكأنَّهُ فرَتَ العَطَشَ، والفُراتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، يقالُ: ماءٌ فُراتٌ، ومياهٌ فُراتٌ[6].

5) ﴿أُجَاجٞ﴾: (أجج) الماء الأُجاجُ: شديدُ المُلوحةِ والمرارة والحرارةِ[7]، مِنْ قولِهم: أَجيجُ النّارِ، ويقالُ: أَجَّ الظَّليمُ؛ إذا عدا، تشبيهًا بأَجيجِ النّارِ[8].

(1) الخليل، العين: (عذب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(3) الراغب، المفردات: (عذب)، والسمين، عمدة الحفاظ: (عذب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي (فرت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرت).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (فرت).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أجج)، وابن فارس، مقاييس اللغة (أج).
(8) الراغب، المفردات: (أجج)، والسمين، عمدة الحفاظ: (أجج).

6) ﴿بَرۡزَخٗا﴾: (برزخ) البرزخُ: الحائلُ بينَ الشَّيئينِ[1]، وقيلَ: البرزخُ: ما بينَ الموتِ إلى القيامةِ[2]، والمقصود في الآية: الحاجز بين شيئين.

7) ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾: (حجر) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهوَ المنعُ والإحاطةُ على الشَّيءِ، يقالُ: حَجَرَ الحاكمُ على السَّفيهِ حَجْرًا: منعَهُ مِنَ التَّصرُّفِ في مالِهِ، ويُسمَّى العقلُ حِجْرًا؛ لأنَّهُ يمنعُ مِنْ إتيانِ ما لا ينبغي[3]، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾، أي: منعًا لا سبيلَ إلى رَفْعِهِ ودَفْعِهِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّهُ الَّذي خلطَ البحرينِ، هذا عَذْبٌ شديدُ العُذوبةِ، وهذا مِلْحٌ شديدُ المُلوحةِ، ومنعَ المِلْحَ مِنْ تغييرِ العَذْبِ عن عُذوبتِهِ، وإفسادِهِ إيّاهُ، فجعلَ بينَهما حاجزًا يمنعُ كلَّ واحدٍ منهُما مِنْ إفسادِ الآخرِ، وجعلَ كلَّ واحدٍ منهُما حرامًا مُحرَّمًا على صاحبِهِ أنْ يُغيِّرَهُ، ويُفسِدَهُ[5].

الامتنانُ بخَلْقِ أنواعِ المياهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

جملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، ومناسبةُ وقوعِها عَقِبَ الَّتي قبلَها أنَّ كلتيهما استدلالٌ بآثارِ القُدرةِ في تكوينِ إيجادِ أنواعِ المياهِ المختلفةِ[6]، على استحقاقِ الخالقِ للألوهيةِ، وانفرادِه بها.

التَّشريكُ في الاستدلالِ بآثارِ القدرةِ

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

لمّا ذكرَ تصريفَ الفُرقانِ ونَشْرَهُ في جميعِ البلدانِ، بعدَ إثارةِ

الجمعُ بين غياب الذات وحُضور الأفعال

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برزخ).
(2) الجوهري، الصحاح: (برزخ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(4) الراغب، المفردات: (حجر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 281.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.

الرّياحِ ونَشْرِ السَّحابِ، وخَلْطِ الماءِ بالتُّرابِ؛ أتبعَهُ على سبيل التَّذكيرِ بالنِّعمةِ، والتَّحذيرِ مِنَ النِّقمةِ، الحَجْزَ بينَ أنواعِ الماءِ، الَّذي لا أعظمَ امتزاجًا منهُ، ورجعَ إلى أسلوبِ الغَيبةِ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ تذكيرًا بالإحسانِ بالعطفِ على ضميرِ الرَّبِّ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[1].

ولأنَّ هذه الأفعال آثارٌ واضحةٌ ودلائلُ حاضرةٌ مشاهدة للإله الذي لا يُشاهد، فهو بمنزلة الغائب بالذات، الحاضر بالصفات والأفعال.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

الامتنانُ لنِعَمِ اللهِ تعالى الموجب لإفراده بالعبادة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالموصولِ في الآيةِ؛ لأنَّ مدارَ الاستدلالِ والامتنانِ هو الكلامُ المذكورُ في حيِّزِ الصِّلةِ، والَّذي ينبني عليهِ بناءً على القصرِ وجوبُ إفرادِهِ تعالى بالعِبادةِ والشُّكرِ، ففي قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ استدلالٌ على عِظَمِ قُدرةِ اللهِ ﷻ، وامتنانٌ وتذكيرٌ ببعضِ نِعَمِهِ جلَّ وتباركَ على خَلْقِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿مَرَجَ﴾ و﴿وَجَعَلَ﴾:

مَرجَ اللهُ البحرينِ وجَعَلَ الحِجْرَ المحجورَ بينَهما

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ على أنَّ مَرْجَ البحرينِ، وجَعْلَ الحِجْرِ المحجورِ بينَهما، أمرانِ قد تحقَّقا، وثبَتا، وهما معلومانِ محسوسانِ مُشاهَدانِ مُتكرِّرانِ، لا يُنكِرُهما أحدٌ، ولا ينازعُ أحدٌ في ثبوتِهما، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللهِ ﷻ، ومقامِ الامتنانِ على عبادِهِ بهذهِ النِّعَمِ.

بلاغةُ القصرِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾:

انفرادُ اللهِ تعالى بهذه النِّعم

قولُهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ استدلالٌ على انفرادِهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 406.

جلَّ ذكرُهُ بالخَلْقِ، وامتنانٌ بمَرْجِ البحرينِ والفصلِ بينَهما، ومَوْرِدُ الاستدلالِ قصرُ مَرْجِ البحرينِ وما عُطِفَ عليهِ على اللهِ ﷻ؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّرَكاءِ لهُ في الإلهيَّةِ، بنفيِ الشِّركةِ في التَّصرُّفِ في هذهِ الكائناتِ، وذلكَ ما لا يُنكِرُهُ المشركونَ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿مَرَجَ﴾ ومعناها:

الـدِّلالـةُ على شـدَّة المـجـاورة والالتصاق

في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ المَرْجَ في الأصلِ: الخَلْطُ، وقد استُعيرَ هنا لشدَّةِ المجاورةِ والالتصاق، والقرينةُ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[2].

وقد اختُلِفَ في معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: فقيلَ: المرادُ: جعلُهما متجاورينِ متلاصقينِ بحيثُ لا يتمازجانِ[3]، وقيلَ: المراد: أرسلَهما في مَجاريهما حتى يتجاورا، ويلتصقا، ولا يختلطا، كما تُرسَلُ الخيلُ في المَرْجِ[4]، وهو راجعٌ إلى المعنى الأوَّل.

دلالةُ التَّعريفِ في: ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾:

احـتـمـالُ العـهـدِ والـجـنـس والاستغراق

جاء قوله: ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ معرَّفًا؛ للعهد، واختلف في البحرين المعهودين، فقيل: بحرُ فارس وبحر الروم، وقيل: غير ذلك[5]، أو تعريفهما للجنسِ، والمرادُ بهما: جميعُ جنس الماءِ العَذْبِ الفرات، وجميعُ جنس الماءِ المالح الأُجاجِ، كأنَّهُ قالَ: مَرَجَ نوعَي الماءِ[6]، أو تعريف البحرين للاستغراق، أي: استغراق أفراد البحار العذبة والمالحة.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 128.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 33.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 117.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 214، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 117.

سرُّ الفصلِ في: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾:

الإيجازُ بالاستئنافِ البيانيِّ أو الحال

جملةُ: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه الكلام، كأنَّ قائلًا قالَ: ما صفةُ هذين البحرين؟ وكيفَ مَرْجُهما؟ فقيلَ: هذا عَذْبٌ فراتٌ، وهذا مِلْحٌ أجاج[1]، أو الجملة حالٌ بتقدير محذوف، أي: مقولًا فيه ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾، والمعنى: أنَّهما بحران مختلفان في الطَّعم واللون والرائحة، متجاوران ملتصقان، ولا يختلطان بقدرة الله ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ:

الدلالةُ على المشاهدةِ والمعاينةِ

الأصلُ في الإشارة الحضورُ والمشاهدةُ؛ لأنَّك لا تشير إلى غائب إلّا مجازًا، ويمكن أن يكون السَّببُ في التَّعبير باسم الإشارة للتَّقسيم في الأمور العرضية، لأنَّ العادةَ أنْ يقالَ: لَقيتُ رجلين أحدُهما كذا والآخرُ كذا، وقد قيلَ هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾؛ لأنَّهُ إنْ أُريدَ التَّقسيمُ بالأمورِ العَرَضيَّةِ يُؤتَى باسمِ الإشارةِ، وإنْ أُريدَ التَّعرُّضُ للأمورِ الذّاتيَّةِ يقالُ: أحدُهم كذا، والآخرُ كذا[2].

نكتةُ استخدامِ اسمِ الإشارةِ الذي يأتي للقريبِ:

التَّنبيهُ على عدمِ التباسِ البحرينِ معَ شدَّةِ المقاربةِ

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ تنبيهٌ على عدمِ التباسِ البحرينِ معَ شدَّةِ المقاربةِ، حتَّى إنَّهُ إذا حُفِرَ على شاطئِ البحرِ المالحِ بالقُربِ منهُ جدًّا؛ خرجَ الماءُ عذبًا فراتًا[3].

أو للدلالة على شدَّةِ قُربهما في الوجود، أو للدَّلالة على أنَّ العلم بهما في غاية القوَّة واليقين كالشَّيء القريب المشاهد.

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 490.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 236.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 407.

غرضُ تنكيرِ ﴿عَذْبٌ﴾ و﴿مِلْحٌ﴾:

عظمةُ نعمةِ اللهِ تعالى بجعْلِ الماءِ عذبًا أو مالحًا

أي: هذا البحرُ عظيمٌ، وماؤه شديد العذوبة والصفاء، وهذا البحرُ ملح، ماؤه متناهٍ في الملوحة والمرارة والحرارة، أو التَّنكير للتَّنويع، أي: هذا نوعٌ عَذْبٌ، وهذا نوعٌ مِلْحٌ، ودليل كونِ التَّنكيرِ للتَّنويعِ ورودُهُ في سياقِ التَّقسيمِ.

سرُّ وصفِ العَذْبِ بالفُراتِ:

المبالغةُ في اتِّصافِهِ بالعُذوبةِ

قولُهُ تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ معناهُ: هذا عَذْبٌ فُراتٌ قامعٌ للعَطَشِ مِنْ فرْطِ عُذوبتِهِ[1].

وتوصيفُ العَذْبِ بالفُراتِ - وهو شديدُ العُذوبةِ - للمبالغةِ فيهِ، وبيانِ كمالِ قُدرتِهِ ﷻ، ببيانِ أنَّ مجاورةَ الماءِ المِلْحِ لا تُزيلُ عُذوبتَهُ الشَّديدةَ، فضلًا عن إزالةِ عُذوبتِهِ رأسًا[2].

نكتةُ وصفِ المِلْحِ بالأُجاجِ:

المبالغةُ في اتِّصافِهِ بالأوصافِ المرغوبِ عنها

قولُهُ تعالى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، معناهُ: وهذا مِلْحٌ بالغٌ المُلوحةِ والمرارة والحرارة[3]، ووصفُ المِلْحِ بالأُجاجِ؛ للمبالغةِ في ذلك الوصف، وبيانِ كمالِ قُدرتِهِ ﷻ على خَلْقِ الماء على هذهِ الصِّفةِ العجيبةِ.

بلاغةُ الجمعِ بينَ العَذْبِ الفُراتِ والمِلْحِ الأُجاجِ:

رعايةُ التَّقابلِ بذكرِ وصفينِ متضادَّينِ

في الجمعِ بينَ العَذْبِ الفُراتِ والمِلْحِ الأُجاجِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ نكتةٌ بديعةٌ، وهي رِعايةُ المقابلةِ بينَهما، أي: هذا عَذْبٌ في نهايةِ العُذوبةِ، وهذا مِلْحٌ في نهايةِ المُلوحةِ[4].

سرُّ تقديمِ العَذْبِ على المِلْحِ:

الانتفاعُ بالماءِ العذبِ الفراتِ أكثرُ من الانتفاعِ بالماءِ المالحِ

قُدِّمَ العَذْبُ الفُراتُ على المِلْحِ الأُجاجِ في قولِهِ ﷻ: ﴿هَذَا عَذْبٌ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 128.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 127.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 128.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 490.

﴿فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ للاهتمامِ بهِ؛ لأنَّهُ نعمةٌ عظيمة، لا يوازيهِ مِنْحةٌ مِنَ المِنَحِ[1].

ولأنَّ الانتفاعَ بالماء العذبِ الفراتِ أعظمُ فائدةٍ من الانتفاع بالماء الملح الأجاج، والإنسانُ لا يستطيع الاستغناءَ عن الأوَّل، ويستطيع الاستغناء عن الثاني.

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾:

جملةُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، وهي مِثْلُها داخلةٌ في حيِّزِ الصِّلةِ، وفيها بيانُ ما بهِ تمامُ الانتفاعِ بالبحرين.

تمامُ الانتفاعِ بالبحرين العذبِ والمالحِ

سرُّ احتمالِ ﴿بَيْنَهُمَا﴾ لأكثر من إعراب:

﴿بَيْنَهُمَا﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ظرفٌ لـ ﴿وَجَعَلَ﴾، أو متعلِّقٌ بمحذوف حالٍ مِنْ ﴿بَرْزَخًا﴾[2]، أي: برزخًا كائنًا أو موجودًا بينهما.

تنوُّعُ المعاني بتنوُّع الإعراب

غرضُ تنكيرِ: ﴿بَرْزَخًا﴾:

الظّاهرُ أنَّ تنوينَ ﴿بَرْزَخًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ للتَّعظيم، أي: وجعلَ بينَهما برزخًا عظيمًا؛ حيثُ إنَّهُ على كثرةِ مُرورِ الدُّهورِ لا يتخلَّلُهُ ماءُ أحدِ البحرين، حتَّى يصلَ إلى الآخرِ فيُغيِّرَ طَعْمَهُ[3]، أو برزخًا عظيمًا لا يزول مع مرور الوقت.

وجودُ البرزخِ يمنعُ اختلاط البحرين

سرُّ التَّعبيرِ بالبرزخِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ معناهُ: وجعلَ بينَهما حاجزًا غيرَ مرئيٍّ مِنْ قُدرتِهِ[4]، فهما مختلطانِ في مَرائي العينِ، منفصلانِ بقُدرةِ

البرزخُ حاجزٌ غيرُ مرئيٍّ في طلاقة القدرة

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 128.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 34.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 34.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 225.

اللّه تعالى[1]، وقيلَ: المرادُ بالبرزخِ: تشبيهُ ما في تركيبِ الماءِ المِلْحِ ممّا يدفعُ تخلُّلَ الماءِ العَذْبِ فيهِ، بحيثُ لا يختلطُ أحدُهما بالآخرِ، ويبقَى كلاهما حافظًا لطَعْمِهِ عندَ المَصَبِّ[2]، وهذا من طلاقة قدرة اللّه تعالى.

تردُّدُ إعراب ﴿وَحِجْرًا﴾ بين عطف المفردات وعطف الجمل:

قولُهُ تعالى: ﴿وَحِجْرًا﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿بَرْزَخًا﴾، أي: وجعلَ بينَهما هذهِ الكلمةَ، أو هو منصوبٌ بقولٍ مُقدَّرٍ، أي: ويقولانِ: حِجْرًا محجورًا[3]، ويلزمُ مِن الأوَّلِ أن يكونَ الحِجرُ غيرَ البرزخِ، ويلزم من الثّاني إثباتُ الحياة للماء؛ إذ كِلا البحرين يقولان.

ثـــراءُ المـعـنـى باختلاف الإعرابِ

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ هي الكلمةُ الَّتي يقولُها المُتعوِّذُ، وهي هنا واقعةٌ على سبيلِ المجازِ، كأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ البحرينِ يتعوَّذُ مِنْ صاحبِهِ، ويقولُ لهُ: حِجْرًا محجورًا، كما قالَ تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن: 20]، أي: لا يبغي أحدُهما على صاحبِهِ بالممازجةِ، جُعِلَ كلُّ واحدٍ منهُما في صورةِ الباغي على صاحبِهِ، فهو يتعوَّذُ منهُ، وذلكَ مِنْ أبلغِ الاستعاراتِ[4].

الـبـلاغـةُ في وصـف الـحِجْـرِ بين البحرين

وتقريرُ الاستعارةِ: أنَّهُ شُبِّهَ البحرانِ بطائفتينِ متعاديتينِ، تريدُ كلٌّ منهُما البَغْيَ على الأخرى، لكنَّهما امتنعَتا مِنْ ذلكَ لمانعٍ قويٍّ مُجبِرٍ، فهي تصريحيَّةٌ تمثيليَّةٌ، بولِغَ فيها هنا، حيثُ جُعِلَ المعنى المستعارُ كاللَّفظِ المَقولِ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ تتعوَّذُ مِنْ صاحبتِها، فانقلبَتِ المُصرِّحةُ مكنيَّةً.

وجوِّزَ فيهِ أنْ يكونَ مجازًا مُرسَلًا، فأُطلِقَ: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ على ما يلزمُهُ مِنَ التَّنافرِ البليغِ[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 118.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 34.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 287.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 430.

دلالةُ وصفِ الحِجْرِ بالمحجورِ:

الـدَّلالـةُ على تمكُّنِ المعنى

﴿مَّحْجُورًا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وصفٌ لـ ﴿وَحِجْرًا﴾، وهو مُشتقٌّ مِنْ مادَّتِهِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ المعنى المُشتقِّ منهُ، كقولِهم: ليلٌ أليلُ[1].

إشارةٌ تفسيرية من أسلوب التَّمثيلِ في الآيةِ:

الـحـجـز بـين الـفـريـقـين كـالـحـجـز بين البحرين

قيلَ: في ضمنِ قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ تمثيلٌ لحالِ دعوةِ الإسلامِ - في مكَّةَ يومئذٍ، واختلاطِ المؤمنينَ معَ المشركينِ - بحالِ تجاورِ البحرينِ، أحدُهما عَذْبٌ فُراتٌ، والآخرُ مِلْحٌ أُجاجٌ، وتمثيلُ الإيمانِ بالعَذْبِ الفُراتِ، والشِّركِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وأنَّ اللّٰهَ تعالى كما جعلَ بينَ البحرينِ برزخًا يحفظُ العَذْبَ مِنْ أنْ يُكدِّرَهُ الأُجاجُ، كذلكَ حجزَ بينَ المسلمينَ والمشركينَ، وحفظ المسلمين وعقائدهم من المشركين ودسائسهم.

ولذلكَ كانَ لموقعِ هذهِ الآيةِ عَقِبَ قولِهِ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أكملُ حُسْنٍ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَذْبُ والفُراتُ:

الـفُـراتُ زيـادة وصـف الصفاء على العذوبة

الفرقُ بينَ العَذْبِ والفُراتِ: أنَّ العَذْبَ هو الماءُ الطَّيِّبُ الحلو، وأنَّ الفرات هو الجامع بين عذوبة الماء وصفائه، أو أنَّ العذب هو الماء الطيب، والفُراتَ هو الشَّديدُ العُذوبةِ والطّيبِ، حتَّى إنَّهُ يَقْرُبُ إلى الحلاوةِ.

المِلحُ والأُجاجُ:

الماءُ المالح هو الذي يكثرُ فيه الملح بحيث لا يَنتفعُ به في السَّقي إنسانٌ ولا أرض إلّا بنوع معالجة، والأُجاج هو الذي يجمع مع الملوحة مرارة وحرارة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 54.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 53.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»